

اللفظ والمعنى عند ابن جني وأثره في البحث البلاغي

## اللفظ والمعنى عند ابن جني وأثره في البحث البلاغي

الباحث /سلطان دخيل الله العوفي

قسم اللغة العربية - جامعة طيبة - المملكة العربية السعودية

بين يدي القارئ :

العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة وطيدة، فهما كجناحي طائر لا ينهض إلا بهما، أو كما قال ابن رشيق القيرواني: " اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته"<sup>١</sup>.

وهذه القضية ولدت في رحاب الفلسفة والدين؛ بسبب ذلك الجدل الطويل الذي كان يدور حول مجموعة من القضايا التي تدور حول القرآن بين طوائف المسلمين، كقضية المحكم والمتشابه، وجواز تفسير المتشابه أو عدمه، وقضية قدم القرآن أو حدوثه، وكون مخلوق وغير مخلوق وحول قراءة القرآن بغير العربية أو عدم جوازها إلى غير ذلك من المسائل التي اشتد الخلاف حولها واتصل الجدل بها<sup>٢</sup>.

واللغويون كانت لهم إسهامات واضحة وجليلة في هذه القضية، وكانت على شكل إشارات ولطائف في كتبهم، فسيبويه أشار إليها في كتابه<sup>٣</sup>، وابن جني تحمس لها، فجاءت جهوده فيها متناثرة في كتبه لاسيما الخصائص، ثم أتى البلاغيون واستثمروا فكرة التناسب بين اللفظ والمعنى من عند اللغويين، فبحثوا عن أوجه المناسبة بينهما من جانب جمالي في اللغة.

هذا وقد شغلت ثنائية اللفظ والمعنى وطبيعة الصلة بينهما اللغويين والأدباء قديما وحديثا، وقد اشتدت المعارك النقدية والأدبية لهذه الثنائية بين النقاد والأدباء، حول أيهما أشرف اللفظ أم المعنى؟ فمنهم من أعلى من شأن اللفظ على حساب المعنى، ومنهم من أعلى المعنى، ومنهم من وضع معايير للجودة بين اللفظ والمعنى، وكل هذا أدى لحركة واسعة أثرت ساحتنا

<sup>١</sup> - العمدة في محاسن الشعر وأدابه: ج١، ص١٢٤.

<sup>٢</sup> - التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة، وليد قصاب، ص٣٧٣.

<sup>٣</sup> - جاء في الكتاب لسيبويه: " ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك: النزوان، والنقران؛ وإنما هذه الأشياء في زعرة البدين واهتزازة في ارتفاع". الكتاب: ج٢، ص١٥٤.

### الباحث/ سلطان دخيل الله العوفي

الأدبية والنقدية في تراثنا العتيق. أيضاً لأهمية هذه الثنائية، نجد أن القضية تلونت وتشكلت بمذاهب أصحاب اللسانيات الحديثة، كالأصولية والبنوية والتداولية والسميائية. ولنسبة الفضل لأهله، واعترافاً بجهودهم وسبق معرفتهم، واعتزازاً بتراثنا الخالد، سأكتب في هذه الورقة عن جهود ابن جني في قضية اللفظ والمعنى، وذلك لكونه أبرز من اهتم بهذه الثنائية من اللغويين، كما أنها ستحاول الإجابة على ميلاد الدرس البلاغي من فكر ابن جني اللغوي، والكشف عن الجذور البلاغية من التفكير اللغوي عنده من خلال قضية اللفظ والمعنى.

### ثنائية اللفظ والمعنى عند ابن جني

يُعتبر أبو الفتح عثمان بن جني من أبرز من اهتم لقضية اللفظ والمعنى من اللغويين، ويقصد ابن جني باللفظ ذلك الصوت المجرد من الحقيقة والفعل، وأن هذا الصوت صناعة لفظية تحدد للمعنى المراد.

يقول ابن جني: " ألا تراك إذا قلت: ضرب سعيد جعفرًا فإن " ضرب" لم تعمل في الحقيقة شيئاً وهل تحصل من قولك ضرب إلا على اللفظ بالضاد والراء والباء على صورة فعل فهذا هو الصوت والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوباً إليه الفعل وإنما قال النحويون: عامل لفظي وعامل معنوي ليروك أن بعض العمل يأتي مسبباً عن لفظ يصحبه كمررت بزيد وليت عمراً قائم." <sup>١</sup>

كما رأى ابن جني الصنعة في اللفظ، فقد أضاف الصناعة للفظ في أكثر من موضع في كتابه الخصائص، وهذا ما أكده بقوله: "ألا تراك إذا سئلت عن زيد من قولنا: قام زيد سميته فاعلاً وإن سئلت عن زيد من قولنا: زيد قام سميته مبتدأ لا فاعلاً وإن كان فاعلاً في المعنى. وذلك أنك سلكت طريق صنعة اللفظ فاختلفت السمة فأما المعنى فواحد فقد ترى إلى سعة طريق اللفظ وضيق طريق المعنى" <sup>٢</sup>

ولأهمية ثنائية اللفظ والمعنى عنده نراه في كتابه الخصائص نراه يعقد باباً في كتابه الخصائص بعنوان: باب في الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها

<sup>١</sup>- ينظر: الخصائص: ج١، ص١١٠.

<sup>٢</sup>- المصدر السابق: ج١، ص٢٤٣.

### اللفظ والمعنى عند ابن جني وأثره في البحث البلاغي

المعاني، وابن جني وإن كان يرى أن الألفاظ خدم للمعاني والمخدوم أشرف من الخادم، وقد أكد هذا الكلام في أكثر من موضع في كتابه الخصائص وهذا دليل على شرف المعنى عنده، فيقول: " فالمعنى إذاً هو المكرم المخدوم، واللفظ هو المبتذل الخادم"<sup>١</sup>، ويقول أيضاً: "الألفاظ خدم للمعاني والمخدوم -لا شك- أشرف من الخادم"<sup>٢</sup>.

ولكن المتأمل في كتاب الخصائص يلحظ عناية واجتهاد ابن جني في الألفاظ، فهو يعقد باباً في إصلاح اللفظ ويورد بعض الأمثلة والشواهد في هذا الباب التي تؤكد العناية باللفظ والاهتمام به عنده، فقد قدم لهذا الباب بقوله " اعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزيمة وعليها أدلة وإليها موصلة، وعلى المراد منها محصلة عنيت العرب بها فأولتها صدرًا صالحًا من تتقيفها وإصلاحها"<sup>٣</sup>.

وهذه العناية الفائقة بالألفاظ التي نلاحظها عند ابن جني، ماهي إلا من اهتمامه البالغ بالمعنى، فهو يهتم باللفظ ولكن ليس على حساب المعنى، فاهتمامه باللفظ نابع من اهتمامه بالمعنى، لأن الألفاظ هي التي توضح المعنى وتبين مراد القائل وتظهره وتجلي حقيقته. فالألفاظ عنوان المعاني، وكالوعاء لها وإصلاح الوعاء وتحسينه قصد به الاحتياط لما أُودع به، والحفاظ عليه حتى لا يطرأ عليه ما يكدره ويذهب الفائدة منه، فالعناية عند ابن جني بالألفاظ ضرورية للعناية بالمعاني، وشرف المعنى ورفعته وفخامته لا يظهر إلا برفعة اللفظ، فالعناية بالألفاظ عنده لازمة<sup>٤</sup>.

يقول ابن جني في باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني: "العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالخطب تارة أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرا في نفوسها. فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لهما في السمع وأذهب بها في الدلالة على القصد، ألا ترى أن

<sup>١</sup> - الخصائص: ج ١، ص ١٥١.

<sup>٢</sup> - المصدر السابق: ج ١، ص ٢٢٢.

<sup>٣</sup> - المصدر السابق: ج ١، ص ٣١٣.

<sup>٤</sup> - ينظر: اثر النحاة في البحث البلاغي: ص ٢٩٠.

## الباحث/ سلطان دخيل الله العوفي

المتل إذا كان مسجوعاً لَدَّ سامعه فحفظه، فإذا حفظه كان جديراً باستعماله، وكذلك الشعر النفس إليه أحفظ وإليه أسرع<sup>١</sup> ولا يكتفي ابن جني بالشق النظري في قضية اللفظ والمعنى بل نراه يعتني بتطبيقها في كتابه ، وذلك من خلال كلامه عن الأبيات الشهيرة :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح  
وشدت على حذب المهاري رحالنا ... ولا ينظر الغادي الذي هو رائج  
أخذنا بأطراف الحديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح  
وقبل الحديث عن رأي ابن جني يجدر بنا الاطلاع على رأي الأدباء والنقاد في هذه الأبيات، فابن قتيبة وابن طباطبا و أبو هلال العسكري وتبعهم الباقلاني، حيث جاء رأيهم متقارب حول هذه الأبيات، ذلك بأنها من الأبيات التي حسن لفظها ووهن معناها وقلت فائدتها، وقد تكلم ابن جني في الأبيات متخذاً منها على ما رآه من أن تميز اللفظ هو السبيل إلى تميز المعنى وهو الدليل عليه<sup>٢</sup>. ومن خلال هذه الآراء يتبين لنا استقلالية ابن جني في الرأي، فهو لم يتأثر بسابقيه ابن قتيبة وابن طباطبا ولم يتأثر بمن عاصروه كأبي هلال العسكري والباقلاني.

### فقد عرض أولاً دعوى معارضية بقوله:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح  
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح  
فقد ترى إلى علو هذا اللفظ ومائه، وصقاله وتلامح أنحائه، ومعناه مع هذا ما تحسه وتراه: إنما هو: لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين، وتحدثنا على ظهور الإبل. ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ رفيعتها مشروفة المعاني خفيضتها".

ثم يأتي الرد من ابن جني بقوله: "هذا الموضع قد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه، ولا رأى ما أراه القوم منه، وإنما ذلك لحفاء طبع الناظر، وخفاء غرض الناطق. وذلك أن في قوله " كل حاجة " ما" يفيد منه أهل النسيب والرقعة، وذوو الأهواء والمقة ما لا يفيد

<sup>١</sup>- ينظر: الخصائص: ج ١، ص ٢١٦.

<sup>٢</sup>- ينظر الخصائص: ج ١، ص ١١-١٢، تحقيق: محمد النجار.

### اللفظ والمعنى عند ابن جني وأثره في البحث البلاغي

غيرهم، ولا يشاركونهم فيه من ليس منهم ألا ترى أن من حوائج "منى" أشياء كثيرة غير ما الظاهر عليه والمعتاد فيه سواها؛ لأن منها التلاقي، ومنها التشاكي، ومنها التخلي، إلى غير ذلك مما هو نال له ومعقود الكون به. وكأنه صانع عن هذا الموضوع الذي أوماً إليه وعقد غرضه عليه بقوله في آخر البيت: ومسح بالأركان من هو ماسحاً إنما كانت حوائجنا التي قضيناها، وآربنا التي أنضيناها، من هذا النحو الذي هو مسح الأركان وما هو لاحق به وجار في القرية من الله مجراه أي لم يتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح.

وأما البيت الثاني فإن فيه: أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

وفي هذا ما ذكره لتراه فتعجب ممن عجب منه ووضع من معناه. وذلك أنه لو قال: أخذنا في أحاديثنا ونحو ذلك لكان فيه معنى يكبره أهل النسب وتعنو له ميعة الماضي الصليب. وذلك أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الألفين والفكاهة بجمع شمل المتواصلين<sup>١</sup>

وقد وقف عبد القاهر الجرجاني عند هذه الأبيات متأثراً من كلام ابن جني السابق الذي يقول فيه: "ألا ترى أنه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضهذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح".

ويقول عبد القاهر الجرجاني: "ثم دلّ بلفظة الأطراف على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر، من التصرف في فنون القول وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتظرفين، من الإشارة والتلويح والرّمز والإيماء"<sup>٢</sup>

وليست هذه المرة الوحيدة التي استثمر فيها عبد القاهر الجرجاني من فكر ابن جني اللغوي، فأثره واضحاً وجلياً في فكر عبد القاهر الجرجاني، يظهر ذلك في قول عبد القاهر الجرجاني في الأسرار: "أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدّم المعاني والمُصرّفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقّة طاعتها"<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> - الخصائص: ج ١، ص ٢١٩-٢٢٠.

<sup>٢</sup> - أسرار البلاغة: ص ٢٣.

<sup>٣</sup> - أسرار البلاغة: ج ١، ص ٨.

## الباحث/ سلطان دخيل الله العوفي

وجهود ابن جني في طبيعة الصلة بين اللفظ والمعنى تدل على عبقريته وعقليته الفذة، ذلك بأن له قدم السبق المعرفي في سياق الحال، وليس للعالم اللغوي فيرث الذبيري أن هناك عناصر أساسية لسياق حال الحدث اللغوي على المستوى الاجتماعي وهي: الحدث الكلامي والحدث غير الكلامي والأشياء الوثيقة الصلة بالموقف وأثر ذلك الحدث.<sup>١</sup>

ومن أجل التأكيد على سبق ابن جني لهذه النظرية، فقد وقف على قول الشاعر :

تقول . وصكت وجهها . بيمينها ... أبلي هذا بالرحى المتقاس؟!!

"قلو قال حاكياً عنها: أبلي هذا بالرحى المتقاس -من غير أن يذكر صك الوجه- لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكراً لكنه لما حكى الحال فقال: "وصكت وجهها " علم بذلك قوة إنكارها وتعاضم الصورة لها. هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين"<sup>٢</sup>

وما استشهد به ابن جني يتضمن أمرين وهما ما عبر عنهما فيرثبالحدث الكلامي بقولها: أبلي هذا بالرحى المتقاس؟ والحدث غير الكلامي ويمثله قوله: وصكت وجهها بيمينها<sup>٣</sup>.

وتتأكد أصالة ابن جني في بحثه للصلة بين اللفظ والمعنى عندما تتناول المسألة من منظور

### لغوي كالصوت والتصريف ودلالة التركيب

فعلاقة الصوت باللفظ عند ابن جني علاقة انسجام وترابط وتلاؤم يدل فيها الصوت على المعنى ويتوافق معه، فطول الصوت وقصره مرتبطان بقوة المعنى وضعفه<sup>٤</sup>، يقول: " فإن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها؛ ألا تراهم قالوا قضم في اليابس وخضم في الرطب؛ ذلك لقوة القاف وضعف الخاء فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف. وكذلك قالوا: صر الجندب، فكررنا الراء لما هناك من استطالة صوته، وقالوا: صرصر البازي فقطعوه لما هناك من تقطيع صوته وسموا الغراب غاق حكاية لصوته والبط بطاً حكاية لأصواتها"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> - الدلالة اللغوية عند العرب: ١٦٠

<sup>٢</sup> - الخصائص: ج ١، ص ٢٤٦.

<sup>٣</sup> - ينظر: الدلالة اللغوية عند العرب، ص ١٦١.

<sup>٤</sup> ينظر: البلاغة والأصول: ٨٥.

<sup>٥</sup> - الخصائص: ج ١، ص ٦٦.

### اللفظ والمعنى عند ابن جني وأثره في البحث البلاغي

وقد وقف ابن جني على ظاهرة الربط بين أصوات المد في الكلمة وما تحمله من معاني دلالية ، وأن المد يقوم مقام الصفة، وقد نقل كلاما لسيبويه ثم علق عليه، يقول سيبويه: "وتقول سير عليه ليلٌ طويلٌ وسير عليه نهارٌ طويلٌ"<sup>١</sup> يريدون: ليلٌ طويلٌ، وهذا إنما يفهم عنهم بتطويل الياء، فقامت المدة مقام الصفة، كما أشار لدور المد في القافية وما يكون من إشباع مدات التأسيس والردف والوصل في القافية وربطها بالمعنى للسياق<sup>٢</sup>

كما أورد ابن جني في كتابه بما يعرف اليوم النبر وأثره في المعنى يقول : "وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأملتّه، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فنقول: كان والله رجلاً، فنزيد في قوة اللفظ ب"الله" هذه الكلمة، وتتمكّن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها"، أي: رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك"<sup>٣</sup>، كما أشار ابن جني إلى مظهر آخر لعلاقة الصوت مع المعنى، وهو التثغيم وذلك في باب نقض الأوضاع إذا ضامها طارئ عليها يقول: "من ذلك لفظ الاستفهام؛ إذ ضامه معنى التعجب استحال خبراً. وذلك كقولك:

مررت برجل أي رجل. فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل، ولست مستقهما"<sup>٤</sup>

وابن جني يؤكد في كتابه بأن الصوت تابع للمعنى ومرتبب به، يقول: "الأصوات تابعة للمعاني -فمتى قويت قويت، ومتى ضعفت ضعفت. ويكفيك من ذلك قولهم: قَطَعَ وَقَطَّعَ، وكَسَرَ وكَسَّرَ. زادوا في الصوت لزيادة المعنى، واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه"<sup>٥</sup>

وعلى الجملة لم يقتصر ابن جني في مناقشة علاقة الصوت بالمعنى في السياق الطبيعي، بل تناولها أيضا في سياق بلاغي، أي ما ينطوي عليه الصوت من معان في مقامات تبليغية معينة، ولعل أبرز مفهوم يكشف عن المعنى البلاغي للصوت اللغوي هو ما اصطاح عليه ابن جني بقوة اللفظ لقوة المعنى، وقد تنبه ابن جني إلى الوظيفة البلاغية للصوت اللغوي<sup>٦</sup>، ومن ذلك قولهم: النضح للماء نحوه والنضح أقوى من النضح، قال الله سبحانه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فجعلوا الحاء -لرقتها- للماء الضعيف، والحاء -لغلظها- لما هو أقوى

<sup>١</sup> - الكتاب: ج ١، ص ٢٢٠.

<sup>٢</sup> - ينظر: المحتسب: ج ٢، ص ٢٠٩.

<sup>٣</sup> - ينظر: الخصائص: ج ٢، ص ٢٧٣.

<sup>٤</sup> - ينظر الخصائص: ج ٣، ص ٢٧٢.

<sup>٥</sup> - ينظر: المحتسب: ج ٢، ص ٢٠٩.

<sup>٦</sup> - ينظر: البلاغة والأصول: ص ٨٤.

منه"<sup>١</sup>. ومن هنا يتبين لنا بما لا يدعو مجالا للشك بأن ابن جني يحمل الصوت اللغوي طاقة تشكيل المعنى البلاغي.<sup>٢</sup>

أما الدلالة الصرفية عند ابن جني، فهو يسميها الدلالة الصناعية، وتستمد قوتها من الدلالة اللفظية حيث أنها القالب الذي نصب فيه الألفاظ وتبنى على صورته ومنواله<sup>٣</sup>، يقول: "وإنما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية من قبل أنها وإن لم تكن لفظاً فإنها صورة يحملها اللفظ، ويخرج عليها ويستقر على المثال المعترزم بها. فلما كانت كذلك لحقت بحكمه وجرت مجرى اللفظ المنطوق به فدخلا بذلك في باب المعلوم بالمشاهدة"<sup>٤</sup>

ومن القيم الصرفية التي أدركها ابن جني بما يعرف في علم اللغة أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فيلاحظ ابن جني في كثير من الصيغ الصرفية فروقا في الدلالة بسبب زيادة الأحرف في أول الصيغة أو في وسطها بتضعيف أحرفها الأصلية، ففي الوزن الصرفي فعل إذا زدنا الهمزة في أوله صار أفعل وبهذا ستختلف دلالاته، يقول: "فأفعل للنقل وجعل الفاعل مفعولاً؛ نحو دخل وأدخلته، وخرج، وأخرجته، ويكون أيضاً للبلوغ نحو أحصد الزرع، وأركب المهر، وأقطف الزرع، ولغير ذلك من المعاني، وأما فاعل فلكونه من اثنين فصاعداً نحو ضارب زيد عمراً وشاتم جعفر بشراً وأما فعل فللتكثير نحو غلق الأبواب وقطع الحبال وكسر الجرار"<sup>٥</sup>.

ويؤكد ابن جني أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى بالأمتثلة التطبيقية، ذلك بأن كثرة الحروف في الكلمة لها دلالة بليغة غير الكلمة من دون زيادة تلك الحروف، فلها دور في ملائمة الكلام للمعنى المراد الذي يدل على الكثرة والمبالغة فيه، مثل: احدودب أقوى من حدب، واعشوشب أقوى من أعشب، وفي قوله تعالى: (أخذ عزيز مقتدر) فمقتدر أبلغ من قادر، ولهذا جاء قوله تعالى: (لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت) فالتعبير عن لفظ الحسنه

١- الخصائص: ج ٢، ص ١٦٠، والآية رقم ٦٦ من سورة الرحمن.

٢- البلاغة والأصول: ٨٤.

٣- ينظر: الدلالة اللغوية عند العرب: ص ١٨٤.

٤- الخصائص: ج ٣، ص ١٠٠.

٥- الخصائص: ج ١، ص ٢٢٤.



### اللفظ والمعنى عند ابن جني وأثره في البحث البلاغي

بكسب؛ لاحتقار الحسنة إلى ثوابها، وجاء اكتسبت في السيئة تنفيها عنها وتهويلا وتشنيعا بارتكابها<sup>١</sup>.

ويقول أيضا في معرض الدلالة الصرفية . ولكن هنا ليس بزيادة الأحرف أو تضعيفها. إنما في الفرق الدلالي في الحركات لكلمة واحدة، وذلك عندما وجه قراءة حسان بن عبدالرحمن "وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"، وأصل القراءة قَوَامًا بالفتح، قال أبو الفتح: القَوَامُ، بفتح القاف: الاعتدال في الأمر، ومنه قولهم: جارية حسنة القوام: إذا كانت معتدلة الطول والخلق. وأما "القَوَامُ" بكسر القاف فإنه ملاك الأمر وعصامه، يقال: ملاك أمرك وقوامه أن تتقي الله في شرك وعلايتك، فكذا قوله: "كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"، أي: ملاكا للأمر ونظاما وعصاما<sup>٢</sup>.

أما الدلالة النحوية فقد اهتم بها من خلال التراكيب والعلاقات النحوية بين الكلمات التي تتخذ كل منها موقعا معينا في الجملة حسب قوانين اللغة، حيث أن كل كلمة في التركيب لابد أن يكون لها وظيفة نحوية من خلال موقعها<sup>٣</sup>، يقول ابن جني: الإعراب إنما جيء به دالا على اختلاف المعاني<sup>٤</sup>.

وهكذا يمضي ابن جني في النظر للعلاقات النحوية من خلال المعنى الذي تحدثه في السياق، فالكلمة الواحدة يتغير إعرابها بتغير موقعها في السياق، يقول ابن جني: "فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلم الثابتة، والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتغيرة، ألا ترى أنك إذا قلت: "قام بكر، ورأيت بكر، ومررت ب بكر" فإنك إنما خالفت بين حركات حروف الإعراب لاختلاف العامل، ولم تعرض لباقي الكلمة، وإذا كان ذلك كذلك فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف؛ لأن معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن يكون أصلا لمعرفة حاله المتغيرة"<sup>٥</sup>.

ومن المسائل النحوية التي تجلى فيها فكر ابن جني باب اسماء نقض المراتب إذا عرض هناك عارض، وأراد بالمرتبة موقع الكلمة في الجملة الذي تستحقه، كالفاعل الذي رتبته

<sup>١</sup> - ينظر: المحتسب، ج ٢، ص ١٣٤.

<sup>٢</sup> - ينظر: الخصائص، ج ٢، ص ١٢٥.

<sup>٣</sup> - ينظر: الدلالة اللغوية عند العرب، ص ١٩٤.

<sup>٤</sup> - ينظر: الخصائص، ج ١، ص ١٧٦.

<sup>٥</sup> - ينظر: المنصف، ج ١، ص ٤.

### الباحث/ سلطان دخيل الله العوفي

التقديم على المفعول، ثم يعرض لهذه الرتبة عارض فينقضها ويصير من الواجب في بناء الجملة تأخير هذا الفاعل، وذلك إن كان فيه ضمير يعود على المفعول، لأن الضمير لا يعود على متأخر لفظاً ورتبه، مثل قولنا: ضرب زيداً غلامه، ولا يقال: ضرب غلامه زيداً، كما قال سبحانه وتعالى ( وإذا ابتلى إبراهيم ربه )، وقد ورد في شعر العرب قول الشاعر:

جزى ربه عني عدي بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وقد خرجوا البيت بأن الضمير عائد على المصدر المدلول عليه بالفعل، أي جزى رب الجزاء، وهذا ما استقر عليه علماء العربية، بأن الضمير لا يعود على متأخر في اللفظ والرتبة. ولكن ابن جنى راجع هذا الإجماع ورأى أن تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستكر، حيث أن تقديم المفعول لما شاع وكثر كان الموضوع له وهو أصل، حتى إذا أُخِّرَ فموضعه التقديم، فاعتبر ابن جنى كثرة تقديم المفعول على الفاعل سبباً في جريان هذا التقديم في نفس القائل وافترض أن المتكلم بهذا الأسلوب الذي أجمعوا على خروجه عن القاعدة فقد نطق بالجملة والمفعول فيها مقدم، ثم جرى لسانه فيها بتأخيره، وبناء على هذا الافتراض النفسي أو التوهم أجاز ابن جنى ما جرى به لسانه<sup>١</sup>، يقول ابن جنى: "كأنه قال: جزى عدي بن حاتم ربه ثم قدم الفاعل"<sup>٢</sup>

وتحدث ابن جنى عن التقديم والتأخير قبل البلاغيين، وأن تقديم بعض المعمولات إنما كان من أجل العناية بالمقدم والاهتمام به، فأتى عبد القاهر الجرجاني بعده ونقل فكرته في دلائل الإعجاز في مسألة التقديم والتأخير، يقول ابن جنى: "ينبغي أن يُعلم ما أذكره هنا؛ وذلك أن أصل وضع المفعول أن يكون فضلة وبعد الفاعل؛ كضرب زيد عمراً، فإذا عناهم ذكر المفعول قَدَّموه على الفاعل، فقالوا: ضرب عمراً زيد، فإن ازدادت عنايتهم به قدموه على الفعل الناصبة، فقالوا: عمراً ضرب زيد، فإن تظاهرت العناية به عقده على أنه رَبُّ الجملة"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup>- ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي، ص ١٠٣-١٠٤.

<sup>٢</sup>- الخصائص: ج ١، ص ٢٩٨.

<sup>٣</sup>- المحتسب: ج ١، ص ٦٥.

### اللفظ والمعنى عند ابن جني وأثره في البحث البلاغي

ومن اهتمام ابن جني بالدلالة النحوية وأثرها في المعنى، فقد وقف على الفرق بين الخطاب بالجملة الإسمية والخطاب بالجملة الفعلية، يقول ابن جني: " وهذا كقولك: إذا زرتني فأنا ممن يحسن إليك، أي: فحرى بي أن أحسن إليك. ولو جاء بالفعل مصارحا به فقال: إذا زرتني أحسنت إليك لم يكن في لفظه ذكر عاداته التي يستعملها من الإحسان إلى زائره، وجاز أيضا أن يظن به عجز عنه، أو وني وفتور دونه"<sup>1</sup>

ويمثل الحمل على المعنى عند ابن جني أداة لتقبل الصيغ اللغوية الموسومة بالشذوذ ومجافاة العرف، ذلك بأنها أداة تعليلية ووسيلة لتوسيع ظواهر اللغة غير المطردة مع القواعد المتعارف عليها، ولاشك بأن في التراكيب المحمولة على المعنى جورا على قواعد الصحة اللغوية من حيث بناؤها الظاهري، غير أن التأويل قادر على ردها إلى النظام اللغوي، بل يفلح في إظهار ما تنطوي عليه من قيمة بلاغية وجمالية، وهكذا يصير مفهوم الحمل على المعنى أداة تأويلية تكشف عن أبعاد المعنى الكامنة في التراكيب الموسومة بالشذوذ<sup>2</sup>

ويظهر أثر الحمل على المعنى عند ابن جني واهتمامه به في توجيهه في بعض القراءات، وقد أولاهما اهتمامه في كتابه المحتسب، فمن تلك التوجيهات، توجيهه لقراءة الحسن " اهدنا صراطا مستقيما"، بحذف اللام من الصراط والمستقيم، وقد ذكر في هذه القراءة وجهين بلاغيين، هما: الوجه الأول: أن تتكبير الصراط المستقيم فيه مزيد من التضرع والرجاء لله رب العالمين، لأن التعريف يعني الصراط المعروف الذي يطمح في الهداية إليه عبادك المستعينون على عبادتك بك، أما التتكير يعني صراط أي صراط؟ وأي قدر من هديك يارينا إلى صراط مستقيم يكفينا، ولا نطمح في أكثر منه، والقليل منك لا يقال له قليل. ويستشهد لهذا المعنى بما جاء في شعر الصادقين في محبتهم بما يتوسلون لمن يحبون بالقليل، ويذكر ما أنشده ابن الأعرابي:

وإني لأرضى منك ياليل... بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله  
بلا، وبأن لا أستطيع وبالمنى ... وبالوعد حتى يسأم الوعد سائله  
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي ... وأخره لانلتقي وأوائله

<sup>1</sup> - الخصائص: ج ٢، ص ٢٧٤.  
<sup>2</sup> - ينظر: البلاغة والأصول: ٩٢.

ويعقب على هذا ويقول : إذا كان هذا في حق مخلوق مثله، فأحرى بالمجتهد أن يسأل خالقه عز وجل مقتصدا في سؤاله وضامنا من نفسه السمع والطاعة على ما يأمره به.

الوجه الثاني: التجريد؛ لأن كلمة اهدنا تتضمن الهداية إلى الصراط المستقيم ثم يأتي قوله تعالى: (صراطا مستقيما)، فهو تكبير في معنى التعريف، وضرب له مثالا بقوله: لئن لقيت رسول الله لتلقين رجلا متاهيا في الخير، ورسولا جامعا لسبل الفضل<sup>١</sup>.

ونقف على تخريج ابن جني قراءة أخرى في قوله تعالى: (ونادوا يامال) بالترخيم، حيث يرى أن السر في الترخيم، ذلك بأنه لعظم ما هم عليهضعت قواهم، وذلت أنفسهم، وصغر كلامهم؛ فكان الاختصار ضرورة في ندائهم<sup>٢</sup>.

وما تقدم من مفاهيم نحوية، يظهر ماتخزنه العلاقات النحوية من طاقة أسلوبية وبلاغية، وقد تتب ابن جني إلى جملة من صور الاستخدام اللغوي النحوي التي لم يحفل بها علماء البلاغة، على الرغم مما تحويه من طاقة بلاغية وأسلوبية تجعلها وثيقة الصلة بطبيعة الحقل البلاغي، وأن وعيه بالأسرار الجمالية للاستعمالات اللغوية النحوية، أشرف به على اعتبار اللغة نسقا تعبيريا جماليا في ذاته<sup>٣</sup>.

واهتمام ابن جني بقضية اللفظ والمعنى تبلور في أربعة فصول من كتابه الخصائص، ذلك بأن اللفظ والمعنى إطار عام كد ابن جني فكره في تأصيلها واجتهد في خدمتها. هذه الفصول هي: تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني، والاشتقاق الأكبر، وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وإمساس الألفاظ أشباه المعاني.

وختاما" .. من خلال ما سبق في محاولة الوقوف على جهود ابن جني في قضية اللفظ والمعنى، يتبين بما لا يدعو مجالا للشك، بأن ابن جني أرسى مفاهيم البلاغة الحديثة، التي تدعو إلى أن البلاغة، بلاغة نص وليست بلاغة جملة، وأن نظريته للغة لم تكن نظرة جزئية بل كانت نظرة شمولية للسياق كاملا، وذلك بالنظر إلى تركيبة اللفظة صوتيا وصرفيا وعلاقتها في التركيب مع بقية الألفاظ الأخرى، والمعنى الناتج من هذا السياق من خلال هذه

<sup>١</sup>- ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي، د. محمد أبو موسى، ص ٨٩-٩٠.

<sup>٢</sup>- ينظر: المحتسب، ج ٢، ص ٢٥٧.

<sup>٣</sup>- ينظر: البلاغة والأصول: ١٠٥.

### اللفظ والمعنى عند ابن جني وأثره في البحث البلاغي

العلاقات كما أنه تنبه لقضية مقتضى الحال أو سياق الحال، وهي مجموعة الظروف والملابسات التي أحاطت بالنص لحظة حدوثه. وهذا ثراء معرفي دقيق سابق يحسب لابن جني على أصحاب الدراسات الحديثة كفان دايك، وبالي وغيرهم من أصحاب النظريات الغربية.

وحقيقة ما في الأمر أن التفكير البلاغي العربي نما في أحضان النحو في صورته الأولى عندما كان موصولاً بالبحث في خصائص العربية، كما كان لنظر ابن جني في جملة من المقومات الصوتية والصرفية والتركيبية<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - المصدر السابق: ص ١٠٥.

الباحث/ سلطان دخيل الله العوفي  
المصادر والمراجع

- ١ . أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبدالقادر حسين، دار غريب، مصر - القاهرة.
- ٢ . أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: عبدالحميد هندراوي، ج١، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط١٤٢٢، ١-٢٠٠١م.
- ٣ . البلاغة والأصول، محمد مشبال، ج١، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٧م.
- ٤ . التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة، د. وليد قصاب، ج١، دار الثقافة، قطر - الدوحة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- ٥ . الدلالة اللغوية عند العرب، د. عبدالكريم مجاهد، دار الضياء، عمان - الأردن.
- ٦ . الخصائص، ابن جني، ج٣، الهيئة المصرية للكتاب، ط٤.
- ٧ . الخصائص، لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ج٣، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ٨ . شرح صحيح البخاري، ابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ج١٠، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط٢، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م.
- ٩ . صحيح البخاري، البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، ج٩، دار طوق النجاة، ط١٤٢٢، ١هـ.
- ١٠ . الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج٤، مكتبة الخانجي، مصر - القاهرة، ط٣، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

---

اللفظ والمعنى عند ابن جني وأثره في البحث البلاغي

١١ . العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد

الحميد، ج٢، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

١٢ . المحتسب، ابن جني، ج٢، وزارة الأوقاف، ١٤٢٠ - ١٩٩٠

١٣ . مراجعات في أصول الدرس البلاغي، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبه، مصر

- القاهرة، ط٢.

١٤ . المنصف، ابن جني، ج١، دار إحياء التراث القديم، ط١، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.